الاغتراب في التراث بين المصطلح و النموذج

بوشيخاوي اسمهان،

جامعة وهران.

دار حديث النقاد المعاصرين في دراستهم للشعر الحديث حول التصور الجديد للعالم الذي اقتحم نظرة الإنسان إلى الكون والمجتمع منذ نهاية الحرب العالمية الثانية، وخاصة بعد التعقيد (التكنولوجي) الذي صاحبه وجه سلبي بانتشار أسلحة الدمار وهيمنة الاستعمار الجديد...

مما ادى الى تاثير المفهوم الجديد على مسار التقاليد الأدبية، بحيث يختلف تأثيره عن الشعر الأوروبي عن تأثيره على الشعر العربي لاجل محلية التقاليد الأدبية لكل منهما ومع ذلك يظل جوهر المفهوم الجديد هو الرابطة العميقة بين مختلف اتجاهات الشعر الحديث لأن المصدر الرئيسي لهذا المفهوم هو الثورة الحضارية المعاصرة .ولما كانت هذه الثورة- ولظروف عديدة- قد اتخذت من أوروبا نقطة انطلاق لها فقد أقبلت مصطلحاتها في صياغة عالمية تخضع لمقتضيات الظروف المحلية، في الوقت الذي لا تتخلى عن صفاتها الإنسانية الشاملة، بل أن الشمول الإنساني من السمات الأساسية البارزة على وجه المفهوم الحضاري الحديث[1].

يتبين لنا من خلال الطرح الأنف الذكر أن نبع الإنسانية جمعاء ليس إلا الحضارة الأوروبية وهذا يبرر تأثير الشعراء العصر الحديث بانعكاسات الحربين العالميتين الأولى والثانية، حيث غدت أشعارهم ذات مفهوم جديد يخضع للمقتضيات القومية، في الوقت الذي لا يتخلى فيه الشعر عن صفته التحررية المناهزة للاستغلال والعنصرية والقضاء على التخلف وتحقيق العدالة الاجتماعية.....

وهكذا تختلف قضيتنا عن قضية شاعر عربي معاصر يحمل بين جوانحه ذكريات هزائم متواصلة وقضيتنا الطهارة والبراءة والشعور الحاد بالغربة وبالموت الذى يحمل بين جوانحه حبا للوطن الأم والانتماء إلى شعبه وأملا في غذ أفضل للمستضعف المستغل ورغبة، في رجوة وقوة الجموع العربية، لكننا لا نجد أثرا من هذاق شعر عثمان لوصيف، بل نجد عزفا على وتر الحزن النابع من الذات كمحور لهذا العالم وليس الحزن النابع من مفهوم الناس...[2]. لا نجد أثرا لمفهومنا وقضايانا الوطنية والقومية لديه، فهو لم يستوحى من القضية الفلسطينية- قضية عصرنا العربي الراهن ولا من ثورة التحرير اعظم تجربة عربية في الانتصار على الاستعمار عبر الكفاح المسلح الشعبي، اللهم إلا بضعة أبيات خطابية كتبهم منطلقا من تجربة شعرية معاصرة لتجارب أخرى. لا انطلاقا من وعي شخص مسؤول من ثمة عرضنا موضوع الاغتراب فى الشعر بعد عرض لتحليلات النقاد الذين تناولوا حزن وقلق الشاعر الذاتي بعيدا عن الإطار العربي القوي.

- لماذا الحزن والاغتراب لدى الشعراء العرب المعاصرين!!
- وفي محاولتنا للإجابة تتبادر إلى أذهاننا عدة أبعاد تسببت في هذه الظاهرة فهناك الموقف من المدينة وصدمة الانتقال إلى الريف والشعور بالغربة والضياع والتشاؤم من حاضر ممزق ومستقبل باهت ولتناقض بين مادة تراث والتطلع للحادثة... هناك الحزن الملتصق بالذات، بل وهناك التأثر بنزعة الحزن الناعي للحضارة الأوروبية مثال عن ذلك ت س إليوت.

وبين هذا وذاك تتفاوت أسباب الحزن الذي ميز حركة الشعر المعاصر لقد تشابهت تجارب الشعراء الريفيين المهاجرين إلى المدينة في طبيعة الصدمة إذا كانت تعبيرا عن الاغتراب النفسي والاجتماعي الذي أصابه[3]. ويذهب الدكتور احسان عباس في تعليله لاسباب الحزن واقلق في الشعر العربى نتيجة النفور من المدينة والحنين الى الريف والحياة البسيطة والاشتياق الى الام والطفولة فنسجت على منوال خيوطها نزعة رومانطيقية اصيلة تحدد زاوية الرؤية الشعرية وتضع الجانب الماساوي عند اصطدام النفس الحساسة بالمشكلات.

وكان هذا هو الاتجاه الذي غلب على شعر نازك الملائكة وحجازي وصلاح عبد الصبور على اختلاف مراحلهم الفنية، وكان الاتجاه الرومانسي نفسه دافقا يوقظ جذوة الوعي بالقضية الكبرى في شعر محمود درويش .....

لذا بدأ عثماء لوصيف، وشعراء جيله رومانسيين فكانوا امتدادا الجيل مدرسة أبولو لأنهم استحدثوا كما نعرف نمطا جديدا في الوزن والقافية واللغة الشعرية والصورة تماشيا مع حركة تطور الشعر الحداثي ومحاولة منه للتعبير عن حركة التكنولوجيا المعقدة في عصرنا الحديث.

ويجمع النقاد المعاصرون على تميز الشعر المعاصر بسمة الحزن والاغتراب اذ أن الحزن والحب والطموح الإنساني إلى الحقيقة ثالوث متعدد الأوجه تكاد تدور حوله معظم رموز الشعرعند عثمان لوصيف، يتسائل الباحث أن كان حزن الشاعر يختلف عن تلك الرومانتيكية التي غمرت إنتاج شعرائنا حتى الحرب العالمية الثانية، فيرجع دافع الحزن إلى الواقع الاجتماعي بكل تنا قضاته والبيئة بكل ما عانته وما تعانيه.

إن الشاعر في بحثه عن الحقيقة إنما يعبر عن تمزقات الإنسان وقلقه المستمر منطلقا من تجاربه ورؤيته وفكره الخاص.

وجاء عثمان لوصيف(*)، مهاجرا من الصحراء إلى المدينة وظل يحلم بالصحراء حيث صدق المشاعر وحرارتها بعيدا عن التلوث والجفاف الذي نشأ فيها طفلا.وتذكره فقدانه أعز ما لديه ففاضت جوارحه بالحزن وانعكس هذا في شعره...بذلك تظهرفوضى المشاعر في تفتق ملكة التعبير.وفي صدد فوضى الفن يعلل محمود عباس العقاد.....

"إن هناك فرق بين الحرية في الفن والفوضى في الفن ويقول أن الفن من أشق الأمور التي تحدد الحرية ليس الفوضى فقط والفوضى شيء مرفوض إطلاقا، ولكن حتى الحرية في الفن، الفن فيها متزمت جدا لا يقبلها مفتوحة على مصرعيها الفن يقيد صاحبه بقدر ما يمنحه".

ويعتبر عثمان لوصيف واحد من الشعراء العرب الجزائريين، الذين مثلو هذا التمزق الاغترابي في شعره، وكان تجسيدا حيا لمعاناة شعب قهر الاستعمار، وكان الشاعر في كثير من الأحيان كما ستمثل لذلك الفقرات القادمة.. يقفز على الواقع ليصور واقعا آخر أكثر مثالية، وصعب التحقيق... لذا يصح أن نقول عنه أنه كان تمثيل جيلا بأكمله من المغتربين إلا أن تمثيله هذا كان فنياواصطلاحيا ويبرز ذلك في القاموس الغوي الموظف من طرف الشعراءبحيث تميزت المصطلحات التى شاعت في المدة الاخيرة وتسربت الى كثير من الاعمال الابداعية.

فأخذت عدة أبعاد وعدة دلالات، مصطلح "الاغتراب" الذي أصبح عسيرا على التحديد والتعريف، وقد توقفنا عند الموسوعة الفرنسية الكبيرة لمعرفة معنى المصطلح، فوجدناه يدل على المعنى التالي:

الاغتراب Alienation: نوع خاص من تصوير العلاقة بين الإنسان والأشياء، وهوبز هو أول من استعمل هذا المصطلح في الفلسفة السياسية، كما أعطي جان جاك روسو بعدا آخر أكثر عمقا في كتابه الشهير وفي نظريته "العقد الاجتماعي"... أما فيور باخ فنزع عن الاغتراب معناه العالمي واختصره في نقد الأديان"(6).

وققد شاع هذا المصطلح مع بداية الثورة الصناعية، وأصبح يشكل ظاهرة بارزة في المجتمعات المتطورة- الرأسمالية- الشيوعية- وذلك بحكم حداثة الآلة وتعقد الحياة الاجتماع... وهكذا أصبح الإنسان يشكل جزيرة لوحده، بعد انفصام الوحدة وتفكك علاقة القربى... وفي الوقت الذي كان فيه الإنسان البدائي يعيش في شكل تجمعات لظروف الطبيعة وقساوتها.

فبعامل التطور تحول الإنسان في الحضارة الغربية إلى "الكائن المكتمل"، ليس بحاجة إلى الآخرين، هنا بدأ يحس بالاغتراب يدب في مفاصله، ويهز في نفسيته لأنه لم يعد قادرا على خلق علاقات أخوية بالمحيط الاجتماعي، وفعلا بدأ الصراع يتحول إلى داخله، وبدأت المعركة بين "الذات" (اللاوعي) و"الأنا" (الوعي)، وبالتالي "أصبح المنطوي على نفسه يظهر... مغتربا من الناس، بل ومن نفسه ومشاعره وعواطفه، يعاني عذاب الوحدة والعجز عن الاتصال بالآخرين وعدم القدرة على التعامل مع غيره".(7)

ومن النماذج الإبداعية الغربية، التي تقرب لنا المفهوم أكثر، والتي تجسد لنا المغترب أحسن تتجسيد، رواية الغريبL'étranger للبيركاي ALBET- CAMUS فالرواية تعالج لنا مفهوم أحد الشبان الفرنسيين وإسمه (ميرسو) MERSAUT يعيش وسط الشعب الجزائري، ويحاول هذا الاخير في كم من فترة أن يصنع وسيلة للاتصال أو لخلق علاقات بهذا الشعب غير أنه لا يفلح ويصاب بالفشل لأن كلامه كله- في نظر المحيطين به- يعمل معمل الشك والخديعة... وتصرفاته كلها تحسب من قبل الجزائريين على أنها مؤامرة، يجب الحذر منها... فالبرغم من سعة دائرة المجتمع إلا أن (ميرسو) يعيش في دائرة ضيقة جدا، تلتف مع الأيام على عنقه كلما زادت حدة انفصامه بالمجتمع.

ومن هنا تصبح كلمة "الاغتراب"، تعني عدم الفلاح في صناعة العلاقات مع المحيط الانساني، والعيش في صراع دائم مع المجتمع، ويتحول هذا الانفصام بمرور الزمن إلى نفس الشخص وإلى ذاته، وهنا ف"الاغتراب عن النفس في هذا المعنى يتميز عن باقي المعاني بكونه ينطوي على شعور الفرد بانفصاله عن ذاته"(8).

بعد هذه الإطلالة السريعة لمفهوم "الاغتراب" نستطيع حصر أهم مميزات وخصائص هذا المصطلح في النقاط التالية:

1. الانسلاخ عن المجتمع: ينتج عن هذا الفعل لتطور وتعقد الظروف الاقتصادية، والاقتصاد روح الجماعة.

2. العزلة: التقوقع عن الذات، الذي يؤدى الى بعد صوفي، ويشعر المرء في هذه الحالة بنوع من السكون الذي لا يستطيع أن يشعر وهو داخل آلة- المجتمع.

3. العجز عن التلاؤم: هناك طبائع بشرية لها خصوصيتها الذاتية، التي لا تستطيع أن تتأقلم مع الذوات، وتجد صعوبات كبيرة في ربط العلاقات بالمحيط، وقد يعوج هذا إلى العقد النفسية من ناحية، وقد يعود إلى أن هذا الأخير يرتاب كثيرا في الآخر.

4. اللامبالاة: النفور من مظاهر الإنسان السوي، في حين تشعر بعض الشرائح بالامبالاة، هذا العنصر يعكس لنا دونية الحياة في نظرهم، ونجد هذه الظاهرة منتشرة عند "السوريالين"...

5. عدم الشعور بالانتماء: من المعروف أن المجتمعات تحكمها روابط وعلاقات في "سكنات" خاصة، وتأخذ هذه الظاهرة طابعا قدسيا، فتتحول إلى عقيدة تحرم المساس بها، وفي المقابل تعيش فئة أخرى خارج المكان وخارج المعتقد يعيشون حيث "اللامكان". ويقدسون "اللاانتماء"... هذه الطبقة نجدها تتجاوز المحلي إلى الإنساني، وإلى العالمي...

باختصار شديد، استطعنا أن نحصر أهم العناصر الأساسية التي تشكل جوهر "الاغتراب" ولتوضيح ذلك أكثر، سنحاول في الفقرات القادمة، الوقوف عند نموذج من الشعراء الذين عاشوا "الاغتراب" في اللاشعور وفي الفن، وهذا النموذج هو الشاعر الفرنسي (رامبوا) وقد وقع عليه الاختيار لأنه تمثل ظاهرة الاغتراب في الشعر العالمي أحسن تمثيل.

رامبو: المتفحص الحياة (رامبو)، سيكشف عدة نقاط، أهمها انعكاس الواقع المر الذي كان يعيشه في شعره، فحياة هذا الأخير كانت مليئة بالاحداث الجسيمة، التي زلزلت نفسه، وزعزت مزاجه ورؤيته.

فالبرغم من ان مرحلة من حياته مرت مفعمة باالاحداث، بدأت المتغيرات تحدث على التوالي، ففي السابعة عشر من عمره، أصبح "الاغتراب" يدق ويتسرب إلى نفسه، فيكسبها مرارة، فهو يقول في مقطع من قصيدته.

"لا يكون المرء جديا في السابعة عشرة.

ليلة جميلة، والشراب والليمون".(9)

حياته فيما بعد، ستسير على نفس النمط، الخمر... والنساء... والتسكع على الأرصفة... والتحول الكبير الذي غير مجرى النهر، وعلى أثره تغيرت كثير من القيم في ادراك الشاعر، جاء يوم لقاء (رامبو) بأستاذة (إيزمبار)، الذي أصبح يرى فيه المرآة والمثال... وعند مفارقة أستاذه له، هو بـ (رامبو) من بيته ليتلتقي بمعلمه... لكن الشرطة قبضت عليه –بطلب من والده- ووأودعته السجن، ثم بعد تدخل أستاذه أطلق سراحه وعاد ثانية إلى مهبط وحيه (شارفيل)، وكتب إلى صديقه، موضحا له سبب شعوره السوداوي.....

الهوامش

1. الدكتور غالي شكري: شعرنا الحديث إلى أين؟ بيروت دار الآفاق الجديدة، الطبعة الثانية، 1978.

- أننا نجد أصداء للرأي السابق وحديثا دائما عن التأثير اللبي للحرب العالمية الثانية ومنه الإحساس بالموت في كتابات الباحثين المعاصرين وأهم ما تقول هنا هو أنه لا ينبغي إغفال صفة الإنسانية الشاملة الحقيقية، والتي لا تخص الأوروبيين وحجهم بل تعني بالجانب القومي والوطني في زمننا العربي وفي العالم الثالث، فنحن لم نتسبب في اندلاع الثورة العالمية الأولى بل كنا ضحاياها أما قضيتنا الأساسية هي ضية تحرير وتنمية الوطن العربي، بمعنى التحرر من الاستعمار الجديد.

2. إحسان عباس: الشعر العربي: المعاصر، علم المعرفة الكويت، فبراير، 1978، ص 62.

3. المصدر السابق.

- – الشاعر عثمان لوصيف من مواليد 1951 بطولقة ولاية بسكرة، قال عنه الشاعر العراقي سعدي يوسف أن شعره يعد ظاهرة جديدة في الأدب الجزائري.

4. La Grand Encyclopédie : LAROUSSE

5. الاغتراب–مجلة عالم الفكر– العدد الأول أبريل مايو، يونيو1979، .Paris 1971

6. الاغتراب اصطلاحا ومفهوما وواقعا: قيس/ علم الفكر، المرجع السابق.

لاعتبر هذا أن رامبوا هو الوحيد في هذا التمثلة، بل هناك شعراء ساروا نفس الخط منهم على الخصوص: بودلير، ملادميه والكاتب دوستوفسكي وكافكا...

ولد رامبوا في شارفيل شمال فرنسا في عام 1854 وقد اانفصل أبوه وأمه حيث كان في السادسة وعاش في أحقر الشوارع

7. سقوط الحضارة: كولن ولسن، دار الأدب، بيروت نقله إلى العربية أنيس كي حسن (95)، ط4، 1981.

المراجع:

1. د. ماهر حسن فهمي: الحميم والغربة في الشعر العربي الحديث، القاهرة 1980.
2. د. عز الدين اسماعيل: الشعر العربي المعاصر (قضياه وظواهره الفنية والمعنوية: بيروت 1981.

3. عبد الله أحمد المهنا: تجربة الاغتراب عند نازك الملائكة، ط1، الكويت 1985.
4. غالي شكري: شعرنا الحديث إلى أين؟ دار الأفاق الجديدة، بيروت، ط2، 1987.
5. إحسان عباس: اتجاهات الشعر العربي المعاصر: عالم المعرفة الكويت1987.
6. شلتاخ عبود شراد: حركة الشعر الحر في الجزائر والمؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1983.
7. جبرا إبراهيم جبرا: الأسطورة والرمز: بيروت 1980.
8. خالدة سعيد: حركة الإبداع (دراسات في الأدب العربي الحديث: بيروت 1982، ط2
9. الوراقي سعيد: لغة الشعر العربي الحديث (مقوماتها الفنية ووظائفها الإبداعية، ط1، القاهرة1989.
10. كولون ولسن: سقوط الحضارة: تريعة أنيس زكي محسن. منشورات دار الأدب القاهرة ط1989،4.
11. كلود لفي ستراوس: الأسطورة والمعنى، ترجمة د. شاكر عبد الحميد العراق، ط1، 1986.
12. يمنى العيد: في معرفة النص، منشورات دار الآفاق الجديد، بيروت، ط3، 1985.
13. علي أحمد سعيد أدونيس: مقدمة ديوان الشعر العربي، الجزء الأول، منشورات المكتبة العصرية1984.
14. فالولي عصر السريالية والأسس، ترجمة خالدة سعيد: منشورات مزار القباني1987.

المجلات:

1. قيس النوري: الاغتراب اصطلاحا ومفهوما ووافقا، عالم الفكر العدد الأول 1981.
2. صلاح عبد الصبور: تجربتي في الشعر: مجلة فصول، مجلد في عدد1، 1981.
3. @hie quondencyclopidolie.jaransse.paue.1981